

ديناميات الصراع الاجتماعي وعلاقتها بممارسات السحر والشعوذة: دراسة وصفية تحليلية

Dynamics of Social Conflict and their Relationship with Magic and Sorcery Practices: A Descriptive and Analytical Study



حمزة غندور *

جامعة الشاذلي بن جديد-الطارف

h.ghandour@univ-eltarf.dz

تاريخ الاستلام: 2026/02/23 تاريخ القبول 2026/05/28 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

هدفت هذه الدراسة للبحث في واقع ظاهرة السحر والشعوذة التي انتشرت انتشار كبيراً داخل المجتمعات، كما سعت للتعرف على تأثيرات السحر والشعوذة على العلاقات الاجتماعية والاستقرار الاجتماعي ودورها الفعال في خلق الصراع والتفكك الاجتماعي، وهذا من خلال قراءة سوسيولوجية لما تم التطرق له من قبل الباحثين حول علاقة السحر والشعوذة بالصراع الاجتماعي، تم الاعتماد على المنهج الوصفي كونه مناسباً لهكذا دراسات وصفية تحليلية، خرجت الدراسة بمجموعة من النتائج أبرزها أن السحر ظاهرة اجتماعية وممارسة إنسانية ضاربة في تاريخ البشرية، ارتبطت هذه الممارسات برغبة الأفراد في الحاق الأذى بالآخرين، شكلت هذه الممارسات أداة مهمة لخلق الصراع الاجتماعي والتفكك الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: السحر؛ الشعوذة؛ الطلاس؛ الصراع الاجتماعي؛ التفكك الاجتماعي.

* المؤلف المراسل

Abstract:

This study aims to investigate the contemporary reality of sorcery and witchcraft, phenomena that have witnessed significant proliferation within modern societies. Furthermore, it seeks to identify the impact of these practices on social relations and communal stability, specifically examining their role in instigating conflict and social disintegration. Adopting a sociological lens, the research reviews existing scholarly literature regarding the nexus between occult practices and social strife. A descriptive-analytical methodology was employed, as it is uniquely suited for such qualitative inquiries. The findings reveal that sorcery is a perennial social phenomenon and a human practice deeply rooted in history. These practices are primarily driven by the individual's desire to inflict harm upon others, thereby serving as a potent catalyst for social conflict and the erosion of communal cohesion.

key words: Sorcery; Witchcraft; Incantations; Social Conflict; Social Disintegration.

مقدمة:

كثيرة هي تلك الظواهر الاجتماعية التي تنخر جسد المجتمعات المتهالك منذ زمن بعيد، وخطيرة هي تلك الممارسات الاجتماعية الخطيرة التي يستخدمها الأفراد منذ الأزل كوسيلة للسيطرة والنجاح داخل التنظيم الاجتماعي، حيث لجأ الإنسان منذ القدم إلى العديد من الأفعال الاجتماعية التي حاول من خلالها بسط نفوذه الاجتماعي وسيطرته النفس-اجتماعية من أجل تحقيق غايات وأهداف واقعية ملموسة وبشتى الطرق حتى ولو ارتبطت بأفعال مرتبطة بطقوس وممارسات غريبة غير واقعية كالسحر والشعوذة.

وعليه تُعد ظاهرة السحر والشعوذة في المجتمعات من أعقد وأكثر الظواهر الاجتماعية التي تشتبك فيها المعتقدات الميتافيزيقية بالواقع السوسيولوجي المعاش يومياً، فهي ليست مجرد طقوس دينية عبثية اخترعها الإنسان فقط، بل هي "لغة اجتماعية" تعبر عن موازين القوى والسلطة داخل التنظيم الجماعي في المجتمعات سواء تلك التقليدية أو المعاصرة، فمن الناحية الأنثروبولوجية، يرى الباحث الإنجليزي "إيفانز بريشارد" أن طقوس السحر تعمل كآلية لتفسير سوء الحظ والمشاكل الاجتماعية، وتحويل الصراعات الخفية إلى أفعال

ظاهرة على الأفراد والجماعات بحكم أن ميدان السحر الأساسي هو الفرد بحد ذاته، بينما سوسيولوجيا يبرز السحر والشعوذة كأداة للمقاومة أو السيطرة داخل التنظيم الجماعي في ظل التوترات الاجتماعية الحادة المرافقة له، ففي المجتمعات التي تعاني من تفاوت طبقي أو غياب للعدالة الاجتماعية، يصبح السحر أداة "لانتقام الرمزي" أو لتفسير النجاح المفاجئ للآخرين، بوصفه نتاج قوى غير طبيعية خارجة عن نطاق الواقع الفعلي المعاش والغير ملموس، وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى تأجيج الأحقاد وانتشار الكراهية والاستقرار في المجتمع بحكم أن نتائج السحر ومخلفاته تكون جد واضحة على حياة الأفراد، وهو ما تجلّى جلياً في بعض الممارسات السحرية في كثير من المجتمعات التي تعاني من الجهل والتخلف الثقافي، مثل "مطاردة الساحرات" في بعض مناطق إفريقيا الواسعة عند وقوع أزمات اقتصادية أو اجتماعية مفاجئة، أو اللجوء لأعمال السحر المتمثلة في "الربط" و"التمائم" في النزاعات العائلية حول الميراث في المجتمعات العربية التي لا تزال تؤمن بهذه الأعمال السحرية الخطيرة، حيث يتحول السحر إلى سلاح في حرب باردة بين الأفراد، وهو ما يفتح الباب للحديث عن ارتباط السحر والشعوذة بالصراعات والتوترات الاجتماعية، بحكم أنها تعتبر كنتيجة فعلية لتلك الممارسات المنافية لعادات وتقاليد وثوابت قيام المجتمعات، خاصة تلك العربية منها، وهو ما يدفعنا للبحث عن جذور الصراعات والتوترات المرتبطة بالسحر وكيفية تطورها مع الحياة الاجتماعية، ناهيك عن الدوافع الحقيقية التي تتأجج من خلالها الصراعات والتوترات الاجتماعية الناتجة عن السحر والشعوذة، وكيف نظر الباحثون والمفكرون لتلك الصراعات من منظورهم السوسيولوجي الخاص وحتى الأنثروبولوجي بحكم أن هذه الممارسة السحرية تطورت مع حياة الإنسان وتحصه دون غيره من كائنات حية، وعليه بناءً على ما تقدم، يمكننا طرح التساؤل الرئيسي التالي:

إلى أي مدى يسهم السحر في إعادة إنتاج الصراعات الاجتماعية، وهل يعمل كأداة للضبط أم للتفكيك؟

ومن أجل قراءة أكثر للبحث بشكل تحليلي وجب علينا طرح التساؤلات الفرعية الآتية:
- كيف يفسر الفكر السوسيولوجي تحول "الاتهام بالسحر والشعوذة" إلى استراتيجية لتوليد الصراعات والتوترات الاجتماعية؟

- ما هي طبيعة العلاقة بين التفاوت الطبقي والجهل والأمية الثقافية، بتنامي الممارسات السحرية كآلية للسيطرة والنجاح في المجتمعات؟

- إلى أي مدى يمكن اعتبار الممارسات السحرية، وسيلة لخلق التوترات النفس-اجتماعية، أم أنه يمثل وقوداً لاستدامة الصراع بين الأفراد داخل التنظيم الاجتماعي؟

المبحث الأول: السحر من المفهوم إلى الوظائف والآثار

سنتطرق في هذا المبحث الأول إلى مدخل مفهوم السحر وباقي المفاهيم المرتبطة به من أجل تبيان اتصال المفاهيم المقاربة له، مروراً بالحديث عن أهم الوظائف والأدوار التي يقوم بها داخل المجتمع، والآثار المترتبة عنه التي تصيب الفرد والمجتمع.

1- مفهوم السحر:

يعرف العلامة "ابن خلدون" السحر: بأنه علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر، إما بغير معين من المور السماوية والأول هو السحر والثاني الطلسمات.

في حين يرى "ابن قدامة المقدسي" بأنه: عقد ورقي وكلام يتكلم به أو يكتب أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له حقيقة فمنه ما يقتل، وما يمرض وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه وما يبغض أحدهما إلى الآخر أو يجب بين اثنين¹.

أما "محمد عاطف غيث" نجدّه يقول عن السحر أنه مجموعة أساليب تستخدم للتأثير على قوى الطبيعة وذلك ببعض الممارسات الشعائرية المعتقدة أنّها تؤدي إلى النتائج الموجودة.

ويضفي السحر على ممارسيه قوى اجتماعية كبيرة ففي كل المجتمعات تقريباً نجد أن الساحر لا يختلف دوره كثيراً عن دور الأخصائي في مجال الطب والدين، فعندما لا يستطيع الدين والعلم إشباع رغبات الإنسان يحل محلها السحر².

كما يعرفه آخرون بأنه "فن التغيير"، "القيام بالأشياء" بوسائل غامضة وغير محددة وغير مرئية "بالكلمات والإيماءات"، "السحر" يفعل ما تحققه التقنيات من خلال العمل³.

ومن أجل المضي قدماً في تعريف واضح وكامل ومرضٍ للسحر، وسّع "مارسيل موس" نطاق الحالات قدر الإمكان، ولم يقتصر على دراسة الأنظمة السحرية القبلية، مثل تلك الخاصة بقبائل أستراليا وميلانيزيا، وهنود الإيروكوا والشيروكي والهيورون في أمريكا الشمالية، بل شمل أيضاً سحر المكسيك القديمة، وأشكال السحر الهندي واليهودي والآشوري واليوناني واللاتيني، وأخيراً تاريخ السحر في العصور الوسطى⁴.

ويشير مصطلح "السحر" عند فيبر إلى الإيمان بقوى منفصلة عن العالم المادي الطبيعي، بما في ذلك الشياطين والأرواح والآلهة والأشباح، بالإضافة إلى قدرة الأفراد ذوي الكاريزما على التأثير في هذه الكيانات، رأى فيبر العالم ما قبل الحديث مليئاً بالغموض والقوى الخفية التي يمكن إخضاعها. ومن المهم الإشارة إلى أن أطروحة فيبر تفترض انتقالاً أحادي الخط من الديني إلى العلماني⁵، وعليه يمكن القول بأن المفهوم ذاع صيته في أبحاث علماء الاجتماع التقليديين على غرار ماكس فيبر ودوركايم وآخرين، كل حسب رؤيته ونظرته لطبيعة المفهوم والعمليات المترتبة عنه.

2- مفهوم الممارسة السحرية:

تعتمد الممارسات السحرية على أداء بعض العمليات، مستعينة ببعض العناصر أو المقومات الأساسية كالأفعال والحركات والكلمات المنطوقة أو المكتوبة أو كليهما، والاعتقاد بأن تلك الممارسات هي سبب حدوث الظاهرة، ويمكن للساحر من خلال فهمه لذلك النظام إخضاعه لإرادته، ونجد أن بعض الثقافات البدائية لا تستطيع التمييز بين الممارسات الدينية والممارسات السحرية⁶.

3- مفهوم التعويذة:

يعرف "غليو نجي" التعويذة: بأنها الصيغة اللفظية التي يتلوها سادن السحر عند القيام بخدمته، وإنها بشكل عام تتصف بالجمود وعدم القابلية على التغيير، وقد عدت أهم أركان السحر ومركز القوة الفاعلة فيه، وتلك القوة منحصرة في صيغتها اللفظية، تنطلق معها من فم المتكلم غير مبالية بشخصه ولا بالمعوذ له سالكة طريقا ذاتيا لا عودة منه حتى بإرادة قائلها⁷.

4- الطقوس:

في علم الاجتماع، الطقوس تشير إلى مجموعة أو نمط من الممارسات المحددة أو الممنوعة مرتبطة بمعتقدات سحرية أو دينية وباحترافات وأعياد، حسب التقسيم الثنائي للمقدس والديني، الطاهر والنجس، هذه الممارسات أثارت ملاحظات وتأويلات الباحثين الفرنسيين (دوركاي، ليفي ستروس كما الباحثين الأنجلوساكسونيين (فريزر، تيرنر).

وهناك فرق بين الطقوس الدينية والطقوس السحرية، فالأولى هي دائما احتفالية وعمومية والزامية مرتبطة بالقيم الجمعية، والثانية هي في الغالب مؤذية وموضوعة في خدمة المصلحة الشخصية وتلتجئ إلى المدنس والتدنيس، ولذلك فهي عموما سرية ومحظورة⁸، فغالبا ما ارتبط هذا المفهوم دوما بعمليات السحر والشعوذة كونه يميل إلى الجانب الروحاني أكثر منه إلى الجانب العلمي الواقعي.

5- وظائف وأدوار السحر والشعوذة:

من أهم الأدوار العديدة التي يلعبها السحر هي وظائفه "الآلية" و "التعبيرية"، استناداً إلى محاولة التأثير على الطبيعة أو السلوك البشري، تُقاس الوظيفة الآلية للسحر بمدى فعاليته في تحقيق النتيجة المرجوة، حيث يحدد علماء الأنثروبولوجيا ثلاثة أنواع رئيسية من السحر الآلي: الإنتاجي والوقائي والمدمر، يُستخدم السحر الإنتاجي لطلب نتيجة ناجحة من العمل البشري أو الطبيعة، مثل الصيد أو الحصاد الوفير أو الطقس الجيد، يهدف السحر الوقائي إلى حماية الفرد أو المجتمع من تقلبات الطبيعة وشر الآخرين. كما يعد استخدام التمايم لدرء الأمراض المعدية أو تلاوة التعويذات قبل الرحلة أمثلة على هذه الوظيفة الوقائية، كما يهدف السحر المدمر أو الشعوذة إلى إيذاء الآخرين، وغالباً ما يكون مدفوعاً بالحسد، وهو مدمر اجتماعياً، وبالتالي فإن استخدام السحر المضاد ضد الشعوذة قد يخفف من بعض التوتر الاجتماعي داخل المجتمع⁹.

من خلال الوظائف والأدوار التي يقوم بها السحر نجد ارتباطه بجملة من الأفعال المنافية لتقاليد ونظم تشكل المجتمعات كونها تخترق حاجز الثبات الاجتماعي وتجعل من حياة الأفراد تحت رحمة الطقوس الروحانية التي تؤدي غايات وأدوار في غالبها تشكل خطراً وضرراً على حياة الأفراد والجماعات.

6- تأثيرات السحر على الفرد والمجتمع:

مما لا شك فيه أن ظاهرة السحر والشعوذة كانت ولا تزال من بين الظواهر الاجتماعية التي ذاع صيتها وانتشارها داخل المجتمعات المحلية والعالمية، نظراً لكونها مرتبطة بجوانب غير ملموسة أو ذات طبيعة روحانية مثلما يرى الكثير من الباحثين والمفكرين، غير أن آثارها أضحت وخيمة على التركيبة الاجتماعية بحكم ما تخلفه من مضار على الفرد والمجتمع على حد سواء، حيث نجد تأثيراتها على الفرد فيما يلي:

- **الانزعال والتفرد:** حيث أن عمليات السحر والشعوذة تعمل على ابعاد الفرد عن باقي الأفراد الآخرين داخل المجتمع، وتجعله يعيش حالة من الاغتراب القهري الذي يحس من خلاله الفرد بالوحدة والعزلة التي تجعل منه يقف دائما خارج نطاق الجماعة التي هو موجود فيها.

- **الأمراض القاهرة:** اتفق الكثير من الباحثين والمفكرين أن السحر أنواع، ومن بين أخطر أنواعه هو سحر التمرير الذي يهتك بجسد الانسان ويجعله عرضة للأمراض المختلفة التي يتعذر الشفاء منها في حالات كثيرة.

- **الإضرابات النفسية:** يعمل السحر على ضرب توازن الفرد النفسي والعاطفي من خلال افقاده التركيز النفسي وجعله عرضة للوسواس القهري والاختلالات العصبية، التي تجعل منه غائب الذهن والتفكير العقلي مما يخلق لديه حالة من الاضطراب النفسي التي تلازمه عبر مراحل مختلفة.

- **التشرد والهجر:** قد يعمل السحر على ضرب كيان الفرد النفسي والاجتماعي، مما يجعله يفكر في هجر أسرته والبقاء دائما بعيدا عنهم، وهو ما قد يجعل منه يعيش حياة الشوارع والتهيان النفسي اللاشعوري.

- **الموت:** في غالب الأحيان يؤدي السحر إلى موت المصاب به وهذا من خلال اصابته بالكثير من الأمراض الخطيرة، أو من خلال حالة التشرد التي تؤدي به إلى الوفاة بعيدا عن أسرته.

- **الفشل النفسي والعاطفي:** يسبب السحر الكثير من الحالات النفسية للمصاب به التي قد تجعله يعيش حالة من الفشل النفسي والعاطفي.

أما عن الآثار الاجتماعية التي يسببها السحر والشعوذة فنجد ما يلي:

- يورث الكراهية والبغضاء داخل المجتمع الواحد.

- يعمل على ضرب كيانات الأسر وتفريقها، مما يخلق مشاكل اجتماعية خطيرة.

- يعتبر في حد ذاته ظاهرة اجتماعية خطيرة تنبع عنها مشكلات اجتماعية أخطر منها كالطلاق والقتل وغيرها.
- نشر الرذيلة والفساد الأخلاقي داخل المجتمع الواحد.
- يعتبر سببا في كثير من الظواهر الاجتماعية والنفسية الخطيرة كالانتحار، العنف الجسدي، التعذيب، الوسواس القهري...
- يعمل على تفكيك الأسرة الواحدة وضرب استقرارها النفسي والوجودي.
- إذابة العلاقات الاجتماعية وزرع الفتن والبغضاء والعنف الرمزي.

المبحث الثاني: السحر والصراعات الاجتماعية

في هذا المبحث سنتطرق الى مجموعة من الأفكار التي قدمها بعض الباحثين حول علاقة السحر بالصراعات والتوترات الاجتماعية التي أصبحت صفة ملازمة لظاهرة السحر والشعوذة منذ القدم وإلى غاية يومنا هذا، كونها تشكل نوعا من عدم التوازن والاستقرار الاجتماعي.

1- قراءة سوسيولوجية لظاهرة السحر:

تمثل البحوث السوسيولوجية بداية الحديث عن السحر وكيفية نشأته وتداعياته على الأفراد والجماعات، وهو ما تجلّى في أفكار الباحثين التقليديين في علم الاجتماع وكيفية نظرهم لظاهرة السحر والشعوذة وخلفيات نشأتها وتطورها والعواقب التي تنجر عنها داخل المجتمع.

فلقد شكلت النماذج التطورية أساس الفكر العلمي الاجتماعي المبكر في القرن التاسع عشر، فإبان تحول أوروبا إلى التصنيع في عصر التنوير، كان النقاش يركز على المكانة التاريخية للدين في تطور المجتمع بحكم أن الدين كان ولا زال موضوعا شائكا لدى الباحثين والمفكرين، وقد رسم الفيلسوف الألماني "جي دبليو إف هيجل" مسارًا جديدًا لفهم التجربة الدينية العالمية في سلسلة من المحاضرات التي تناولت فلسفة الدين، نشرت

بعد وفاته عام 1832، وكان من بين النقاط ذات الصلة بموضوعنا أنه نسب القدر نفسه من الأهمية لفهم كيف شكلت الثقافة الفكر اللاهوتي ولفهم كيف شكل الدين العقل، لم يكن هيجل مهتما بالسحر في حد ذاته، لكنه خصص له موقعا في المرحلة الأولى من مراحل الدين الثلاث التي ابتكرها، وقد كانت تلك المراحل الثلاث كما يلي: الأديان التي كانت فيها الطبيعة مشبعة بالأرواح، وأديان الآلهة الممجدة الفردية فوق الدنيوية، وأخيراً المسيحية التي اعتبرها مزيجاً بارعاً» من المرحلتين الأخريين، ومن ثم كان السحر أقدم أشكال الدين، وأكثرها بدائية وبساطة، والذي قال هيجل عنه إنه لا يزال موجوداً بين شعوب معينة، مثل شعب الإسكيمو والقبائل والتجمعات الإفريقية¹⁰.

قد يبدو من غير المحتمل أن يرد ذكر عالم السياسة الثوري "كارل ماركس" في دراسة عن السحر، وهو لم يدرس قضية السحر على وجه التحديد لكن آراءه المعروفة عن الدين ذات صلة بهذا السياق، ويمكن إيجازها في عبارتيه الشهيرتين: "الإنسان هو الذي يصنع الدين، وليس الدين هو الذي يصنع الإنسان"، و "الدين أفيون الشعوب"، ورغم أن ماركس الملحد كان على دراية كبيرة بفكر هيجل وناقدا له في الوقت نفسه، إلا أنه كان متفقاً مع فكرة أن أقدم أشكال الدين ارتبطت بعبادة الطبيعة، أو ما سيطلق عليه لاحقاً المذهب «الإحيائي»، وإبان ذلك احتلت فئة السحر مكاناً أكثر أهمية، ودخل العلم الخطة باعتباره نموذج التطور البشري، لم يكن هذا يعني أن تعريفات السحر ستصبح أكثر وضوحاً، بل على العكس، ازداد فهم السحر تشوشاً، وهذا ناتج عن كونه متعلق بجوانب ميتافيزيقية غريبة غير ملموسة، أي أنها لا تتصف بصفة من صفات العلم الذي يستفاد منه، كون متصل بجوانب روحانية غير مفيدة للبشر.

كان العلامة والمنظر الاجتماعي البريطاني "هربرت سبنسر" أول من نشر نموذجاً تطورياً اجتماعياً صور فيه السحر على أنه يحدد نموذجاً بدائياً للدين يقوم على العلاقات المتجانسة وعبادة الأسلاف، ولكنه — كممارسة — قابل للتكيف مع تطور الدين، بحيث

يستطيع الدين والسحر التعايش معاً، لكن منافسه "إدوارد بيرنت تايلور" هو الذي أثار مخيلة الدارسين، وأكد كون السحر موضوعاً رئيسياً في بحوث الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع¹¹.

ويرى تايلور أن السحر كان موجوداً في بادئ الأمر باعتباره تعبيراً عن فكرة «الإحيائية»، التي ترى أن الأشياء – وكذلك البشر – لها أرواح أو جوهر روحياني، وكان الفكر الإحيائي والسحر سمة للشعوب التي تحتل مراتب دنيا على مقياس الإنسانية ثم تطور الدين كقوة مستقلة من مفهوم الروح البشرية.

صك تايلور أيضاً مصطلح «العلم الزائف» لوصف السحر، بحكم أنه غير مرتبط بعلم واقعي ملموس، وكان يعني بهذا أن السحر – على غرار العلم – يفسر العلاقة السببية بين الأشياء ويستغلها، لكنه علم فاسد أي لا يعود على المجتمعات بالفائدة والنفع، لأن افتراضاته وتفسيراته البدائية حول السبب والنتيجة كانت دائماً خاطئة وغير صادقة بحكم مخلفاته التي تعود بالضرر على الأفراد والجماعات، فلم تكن أجندة تايلور مجرد أجندة باحث علمي متجرد، وفي حين أنه لم يكن مدافعاً عن الدين المنظم، فإنه وجه هجومه في المقام الأول إلى السحر، الذي وصفه بأنه «توليفة وحشية»، وأحد أخطر الأوهام التي حيرت الجنس البشري على خلفية نتائجها السلبية على حياة الأفراد والجماعات، وقد شبه الثقافات البدائية بالأطفال لأنها تحتاج مثلهم إلى توجيه كي ترتقي إلى مرحلة أعلى من الفكر.

تدقق نقد قوي من عالم الاجتماع الفرنسي: "إميل دوركايم" الذي رفض في كتابه «أشكال أولية للحياة الدينية» (1912) وفي غيره من أعماله فكرة تعريف الدين من منظور ينحصر في نطاق الآلهة والكيانات الروحية وبهذا أطاح في وقت واحد بتعريف "تايلور وفريزر" للسحر، وبدلاً من ذلك رأى دوركايم أن الدين «نظام موحد من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأمور مقدسة، لكنه لم يتكبد عناء تقديم تعريف واضح

يحدد ما يقصده بصفة مقدسة»، عدا أنه قال إنها «عكس مدنسة»، الأمر الذي أتاح مجالا واسعا للجدل حول رأيه فيما بعد، ومن منظور دوركايم كان الدين يتسم بالاندماج الاجتماعي وتشارك القيم والخبرات، وأن الكنائس تعبير عن المجتمع، ومن ناحية أخرى، يهتم السحر بالمعاملات بين الأفراد، وبصفته نموذجا من نماذج الاعتقاد، فإن السحر لا يلعب أي وظيفة في التلاحم الاجتماعي، وبصفته ممارسة فإنه كان يهتم بتقديم خدمة الزبائن، فيقول دوركايم: «السحر لا كنيسة له» صحيح أن السحر والدين تجمعهما معتقدات وطقوس وعقائد متشابهة، لكن اختلاف وظيفة كل منهما الاجتماعية هو الذي فرق بينهما¹².

فمحاولة دوركايم عدم إعطاء تعريف واضح للسحر وكذا عدم ربطه بالكنائس والمعابد يستخلص من خلاله نظرة العالم التي كانت تنادي دائما للمحافظة على التوازن الاجتماعي واللحمة الاجتماعية المستمدة من التقسيمات الاجتماعية، حيث تعتبر نظرتة للسحر ضيقة بحكم أنه يرى بأن تلك الممارسات لا تساهم في خدمة المجتمع ككل بل تخدم أفراد دون آخرين أطلق عليهم صفة "الزبائن"، بحكم أن السحر لا يلعب دورا أساسيا ولا ثانويا في الحفاظ على تلاحم المجتمع وتماسكه.

وبينما تعامل دوركايم مع السحر على اعتبار أنه جزء ملحق برؤيته الاجتماعية للدين، تعامل ابن أخته "مارسيل موس" مع السحر تعاملًا مباشرًا، ففي كتابه «نظرية عامة عن السحر»، اتخذ "موس" من تعريف خاله للسحر بأنه نشاط خاص، وللدين بأنه نشاط جماعي نقطة انطلاق، ثم تناول بالفحص جوانب من الطقوس المقدسة التي تمارسها مجتمعات مختلفة وخلص إلى أن «الطقس السحري هو ذلك الذي لا يلعب أي دور في طائفة منظمة، لأنه شخصي وسري وغامض، حتى هذا الحد لا فرق بين رؤيتي موس ودوركايم، لكن الأول لم يرى اختلافا جوهريا بين الدين والسحر، وكان شخصيًا يفضل الحقائق على النظريات، وذهب إلى أن الطقوس السحرية والدينية قد تؤدي من قبل

شخصيات مختلفة في ثقافات عديدة، لكن كلاهما غالباً ما يكون قائماً على المفاهيم نفسها، فهناك أنواع من السحر ارتبطت بالابتهاال والعدوان في نفس الوقت. وقد شجع النهج الرمزي الذي انتهجه "جينيب" وغيره إلى جانب المناهج السيكلولوجية الدارسين على استكشاف المعنى الرمزي من السحر من حيث بنيته، وتمثيله الاجتماعي، وما يرتبط به من طقوس، وهذا بدوره أدخل إلى المعادلة عامل النوع أو الجنس.

وكما استكشفت "ماري دوجلاس" في كتابها الطهارة والخطر، فإن مفاهيم الدنس الجسدي ثرية بالرمزية، وغالباً ما ترتبط بجنس بعينه، وإن فتحات الجسم تشكل حدوداً ذات أهمية اجتماعية، فهي تؤدي إلى حدوث تسربات وتلوث، فهناك العديد من الممارسات السحرية في جميع أنحاء العالم معنية بدم الحيض مثلاً، وثمة إفرازات أخرى مثل: حليب الثدي واللعب والبول لها أهمية سحرية، ويلجأ الناس لطقوس التطهير لاستعادة الطهارة الجسدية وإحداث التوافق في العلاقات الاجتماعية¹³.

فنظرة ماري دوجلاس لتلك الممارسات التي ارتبطت دوماً بالقذارة والنجاسة مستمدة من أبحاثها التي جسدت فيها معاني كثيرة، رأت من خلالها أن تلك الممارسات تمثل أفعال قذرة وبوسائل غير طاهرة منافية لعادات المجتمعات وتقاليدها، وحتى نتائجها تكون غير صادقة ولا تتصف بالطهارة والأخلاق، وهو ما يشكل في حد ذاته نظرة صراعية غير معلنة بحكم أن تلك الممارسات لا تعود بالنفع على الأفراد ولا على التنظيم الاجتماعي.

2- السحر بين التوتر الاجتماعي والاتهامات:

يؤكد الباحث "جون بيار تيريل" أن اتهامات السحر غالباً ما تكون انعكاساً لتوترات اجتماعية كامنة، لا سيما تلك المتعلقة بالتنافس والغيرة بين أفراد المجتمع. لا تنبع هذه الاتهامات من مظالم فردية فحسب، بل تتجذر بعمق في الصراع على المكانة والموارد داخل الشبكات الاجتماعية المترابطة، وبالتالي، تمثل ممارسة السحر آلية لمعالجة التفاوتات

الاجتماعية، مما يسمح للمجتمعات بتنظيم سلوكها وحل النزاعات من خلال وسائل طقسية. وتبرز هذه الاتهامات بشكل خاص في أوقات التوتر أو الأزمات، حيث تكون العلاقات المجتمعية متوترة¹⁴.

ومع تطور المجتمعات، لا سيما في مواجهة الضغوط الخارجية أو التحولات في البنية الاجتماعية، تتغير ديناميكيات ممارسات السحر أيضاً، يلاحظ "تيريل" أنه مع ازدياد استقلالية الأفراد والجماعات، تتطور طبيعة السحر من ممارسات جماعية إلى حالات فردية من العدوان السحري، حيث يمكن أن يؤدي هذا التحول إلى تقويض الغرض الأصلي للسحر -تنظيم العلاقات الاجتماعية بما يحقق المساواة- وتحويله إلى أداة لفرض ديناميكيات قوة غير متكافئة، حيث يتلاعب القادة المتمرسون باتهامات السحر لتعزيز سلطتهم¹⁵.

من الممكن أن تُشكّل معتقدات السحر عنصراً أساسياً في الصراعات الشخصية أو بين الجماعات، حيث يشير عالم الأنثروبولوجيا "إي إي. إيفانز-بريتشارد"، عن مزارعي الأزاندي في شمال وسط أفريقيا، إلى أن "الموت" هو نتيجة السحر ويجب الانتقام منه، جميع الممارسات الأخرى المرتبطة بالسحر تتجسد في فعل الانتقام"، أما بالنسبة لمزارعي البستنة والجمعيات الزراعية من قبيلة "يانومامي" في الأمازون، فيقول "نابليون شاغنون": "عادةً ما تندلع حروب جديدة عندما تُوجّه اتهامات بالسحر إلى أفراد جماعة مختلفة".

كما يمكن أن تكون اتهامات السحر سبباً للصراع واستجابة له، حيث يلاحظ كل من "ستيوارت وستراثرن" أنه في كثير من الحالات، "بينما يُنظر إلى الساحر أو المشعوذ على أنه مصدر الشر أو الخطأ، فإن المتهمين هم من يمكن اعتبارهم يلعبون الدور العدواني"، ويضيفان أن "الشائعات والقييل والقال تشكل الأساس الذي قد تُبنى عليه اتهامات السحر أو الشعوذة"، وبينما يبدو الساحر ظاهرياً شخصية ذات قوة عظمى، فإن الاتهام نفسه قد ينطوي على سحر أكثر عدائية، لأنه قد يدفع المجموعة إلى الانخراط في معاقبة

الساحر المزعوم بعنف، في كتاب "كبش الفداء" (1986)، كتب العالم "رينيه جيرارد" أن "الفكر السحري يسعى إلى "سبب مهم على مستوى العلاقات الاجتماعية"، أي إنسان ضحية، "كبش فداء"، يضيف جيرارد أن "المعانين لا يُعانون بالأسباب الطبيعية، السحر وحده يُمكن من "التدخل التصحيحي"، والجميع يبحث بشغف عن ساحر يُصلح الأمور"¹⁶.

وهو ما نجده في الكثير من المجتمعات العربية، حيث يلجأ الكثير من الأفراد في حالات الإصابات النفسية أو الجسدية إلى ممارس الأفعال السحرية، من أجل محاولة إيجاد علاج للمرض ومحاولة الشفاء، وحتى المسحور في حد ذاته يلجأ إلى مشعوذ أو ساحر آخر من أجل التداوي ومعالجة السحر، بحكم تطابق القوى الغيبية التي يراها الكثيرون مفيدة لمعالجة السحر، وهو ما يتنافى مع الواقع الفعلي المعاش الذي يستوجب من الفرد المصاب اللجوء إلى طرق علمية للعلاج.

يمكن للأفراد استخدام اتهامات السحر غير اللائق تكتيكياً لمعاقبة من هم في خلاف معهم، أو لتحقيق مكاسب شخصية، يشير "كناوفا" إلى أن "رأي الأرواح خلال جلسات استحضار الأرواح التي تستمر طوال الليل كان له تأثير خاص في إيجاد وتفسير "أدلة" السحر".

كما يشير الباحث "نيل وايتهد وروين رايت" إلى البُعد الاستراتيجي لادعاءات السحر في الأمازون، حيث يكتبان: "قد تمثل اتهامات السحر أشكالا من الخطاب حول التوترات في العلاقات بين القرى وبين الأعراق، وقد تكون مُهيكلّة وفقاً لمفهوم القرابة (النسب والمصاهرة) والتسلسل الهرمي للقرية"¹⁷.

ففي دراسة شملت 800 أسرة في المناطق الريفية بجنوب غرب الصين، وجدت عالمة الأنثروبولوجيا "روث ميس" وزملاؤها أن الأسر المتهمّة بممارسة السحر غالباً ما تُستبعد من الشبكات الاجتماعية السائدة، وتُفضّل بدلاً من ذلك الارتباط فيما بينها، وتُحادل

"ميس" وزملاؤها بأن هذا "الوصم نشأ في الأصل كآلية للإضرار بالمنافسات من الإناث"، ويلخص "ستيوارت وستراثرين" العديد من الأنماط التي تم تحديدها هنا، ويكتبان أن: "غالباً ما تتواجد الادعاءات والادعاءات المضادة حول أنشطة السحرة والمشعوذين في كواليس شؤون المجتمعات، التي تسود فيها هذه الأفكار"، وتزدهر هذه الادعاءات في الخفاء، تغذيها القيل والقال والشائعات، ولا تظهر إلى العلن أو تُوجه اتهامات إلا في أوقات التوتر الشديد، وغالباً ما يكون ذلك عقب مرض أو وفاة أحد أفراد عائلة مرموقة.

وبعيداً عن الصراع الاجتماعي الذي ينبع من المصلحة الذاتية، أو الشكوك المنسوبة خطأً إلى شخصيات هامشية، يمكن أن تعمل اتهامات السحر كعنصر من عناصر النظام القانوني المستخدم لمعاقبة المجرمين والقتلة المعروفين، في عمله حول قانون إيفوغاو، يصف الباحث "روي فرانكلين بارتون" إحدى هذه الحالات: اكتسب "أتيوان من لونغا" سمعة سيئة كساحر، فقتل العديد من أقاربه، حتى أقاربه في لونغا اعترفوا بأنه ساحر، وقالوا إنه يجب قتله¹⁸. فلقد انتشرت في العديد من المجتمعات التقليدية وحتى المعاصرة منها الكثير من الممارسات المضادة للأفعال السحرية، والتي كانت في أغلبها تميزت بالعنف الجسدي الذي يصل إلى درجة القتل والتنكيل نظير ما يتسبب به الساحر من أذى.

3- قراءة تحليلية للظاهرة:

من خلال ما تم التطرق له في العناصر السابقة وعبر مختلف الباحثين المفكرين سواء باحثين اجتماعيين أو أنثروبولوجيون، نجد أن مفهوم السحر والشعوذة ارتبط غالباً بمجموعة من الممارسات المنافية لقيم وعادات وتقاليد المجتمعات، سواء كانت بدائية أو متحضرة، حيث كان ولا زال هذا المفهوم يشكل في حد ذاته توتراً لدى القارئ والتمعن في معانيه ووظائف وآثاره كونه ارتبط بالتوترات والصراعات الاجتماعية، التي جعلت من ظاهرة السحر والشعوذة تتغلغل داخل أطياف المجتمعات المحلية والعالمية، فلطالما كانت

أسباب اللجوء الى هذه الطقوس والتعاويذ هي تلك التفككات الاجتماعية والاستقرار الاجتماعي، الذي يتجذر من خلال تلك الخلافات والصراعات الاجتماعية الطفيفة التي تغذيها الفتن والكراهية لتتحول إلى معضلات اجتماعية، تجعل من المجتمع يعاني التصدع والانقسامات.

فالكثير من المفكرين الاجتماعيين حاولوا إبعاد أفكارهم عن هذا المفهوم الشائك وهذا عبر محاولاتهم لربطه بالدين وبعض المعتقدات التقليدية الأخرى، التي لا تزال قائمة لغاية يومنا هذا، غير أن الجانب المظلم من هذا المفهوم والظاهرة في حد ذاتها يكشف لنا عن جملة من الصراعات الاجتماعية الداخلية، التي يلجأ من خلالها الأفراد إلى هذه الطقوس والتعاويذ، كالربط والتمائم والتصفيح... مما يخلق ظواهر اجتماعية مصاحبة له اعتبرها الكثيرون نتيجة حتمية للسحر والشعوذة، كالقتل والعنف الجسدي والانتحار والطلاق والتشرد والعزلة الاجتماعية، ناهيك عن كثير من الاضطرابات النفسية والسلوكية التي تؤدي لإصابة بأمراض خطيرة جدا كالوسواس القهري والإكتئاب...، وهو ما يعكس حجم وجسامة هذه الظاهرة، التي ارتبطت في غالبها دوما بالتفكك الاجتماعي الذي لازم الحياة البشرية منذ القدم، ولعل تلك الأبحاث والدراسات التي أجريت سابقا على العديد من المجتمعات التقليدية تعكس لنا امتداد الظاهرة التاريخي، الذي كان ولازال متصلا بإحداث الفوضى الاجتماعية وزرع التهميش والمعاونة الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، حتى أن تجذر الظاهرة وامتدادها التاريخي جعلها تبقى قائمة إلى غاية يومنا هذا جاعلة من المجتمع ميدانا لها والأفراد كفئران تجارب حتميين.

إن الباحث في هذا المفهوم ينطلق مباشرة من نتيجة حتمية ألا وهي وجود توترات وصراعات اجتماعية مباشرة، كون هذه الظاهرة ارتبطت دوما بكل ما يجعل هذا المجتمع يعيش حالة من اللاتوازن والاستقرار الاجتماعي، بحكم ما خلفته الطقوس والتعاويذ المرتبطة بالسحر من خلافات أسرية أزلية، أدت إلى تفكك الأسر وعدم استقرارها،

ناهيك عن أمراض نفسية واجتماعية تصيب الأفراد والجماعات، ففي الوقت الحالي وفي عصر التقدم والتطور التكنولوجي، الذي من المفترض أن تكون الكثير من الطقوس والأفعال الاجتماعية المنافية لمبادئ وعادات وتقاليد المجتمع قد اضمحلت، إلا أن هذه الظاهرة لا تزال قائمة وتزداد حدتها في أوساط كثيرة من المجتمع، كونها ظاهرة متغلغلة في المكونات الأساسية للمجتمعات كافة بغض النظر عن تقدمها أو تأخرها وبالأخص تلك المجتمعات التي لا تزال تعاني ويلات التهميش والفقر والحرمان، وهو ما يفتح الباب لتشابك المشكلات الاجتماعية المتصلة ببعضها البعض والتي تجعل المجتمع في حالة صراع وتوتر دائم.

وهو ما أكدت عليه دراسة "الشاعري سليمة"، المعنونة بـ "السحر وأثره على العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة: دراسة ميدانية على عينة بعض النساء بمدينة طبرق"، حيث توصلت إلى من نتائج السحر الوخيمة هي تلك المشاكل الأسرية مثل الكراهية والنفور، العنف الأسري، تفكك الأسرة، الطلاق، الإصابة بالأمراض المزمنة، الجنون، الموت...وهو كذلك ما أكدت عليه دراسة "زرارة عيسى" الموسومة بـ "جريمة السحر والشعوذة ومكافحتها (دراسة مقارنة)، حيث توصل إلى أن هذه الظاهرة تعد من بين أخطر الظواهر الاجتماعية على الفرد والمجتمع، كما أنها أفعال محرمة دينيا.

خاتمة:

من خلال ما تم التطرق له حول موضوع السحر والشعوذة وعلاقتها بالصراعات الاجتماعية، نجد أن هذه الممارسات ورغم التطور المجتمعي الحالي في عصر الذكاء الاصطناعي والتقدم التكنولوجي الرهيب، إلا أنها لا تزال تحتل حيزا اجتماعيا كبيرا ذو تأثير مهول على حياة الأفراد والمجتمعات، فالكثير من الممارسات السحرية اليوم تعد صدى واقعي لممارسات متوارثة من القدم إلى غاية اليوم، وهو ما عبر عنه الكثير من الباحثين والمفكرين الاجتماعيين والمختصين في علم الانسان، فالسحر ومنذ ظهوره ارتبط

دوما بتحقيق مآرب الأفراد والمنافع الشخصية على حساب معاناة وآلام الأفراد الآخرين، خالقا من خلالها صراعات وتوترات اجتماعية متوارثة عبر العائلات والتنظيمات الاجتماعية، فكثير من الصراعات اليوم خلفت عقودا من الكراهية والأحقاد والاستقرار داخل المجتمعات، فاتحة المجال أمام ظواهر اجتماعية خطيرة متصلة بها، كالانتحار والعنف الجسدي والرمزي والسرقة والنهب والتعدي على الحرمات... منتهكة بذلك السير الحسن للعمليات الاجتماعية داخل أي تنظيم جماعي، كون تلك الممارسات السحرية ارتبطت بالجانب الروحاني الميتافيزيقي الغير ملموس، الذي كان ولا زال يشكل تهديدا على حياة الأفراد والجماعات، وهذا ما يدفعنا الى طرح تساؤل متجدد "إلى متى تستمر هذه الممارسات تنخر جسد المجتمعات، وهل يمكن الحد منها في زمن التكنولوجيا الرقمية المتطورة؟

الهوامش:

¹ - غوالم أمانة، مصطلح السحر في ضوء اللسانيات الاجتماعية، مجلة الصوتيات، المجلد 17، العدد 2، 2021، ص 283-300.

² - المرجع نفسه.

³-Irene Skovgaard-Smith and Alison Hirst, Marcel Mauss and the magical agents of our time, Journal of Classical Sociology, Volume 24, Issue 2, 2024 , p p 171_185.
<https://journals.sagepub.com/doi/10.1177/1468795X231151797?int.sj-abstract.similar-articles.1>

⁴-The social dimension of magic/The social dimension of magic /Stratis Psaltou, Routledge Taylor & Francis Group, London And New York, 2008, p p 168_169.

⁵-Magic and the Postsecular: Disenchantment and Participatory Consciousness By Simon Dein Religions Journal, 2025, 16, 1413.

⁶ - حبيبة بن يحيى صلاح الدين هدوش، النبات في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط بين الممارسات الطبية والطقوس السحرية، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 07 العدد 02، ص ص 268-288، ماي 2023، ص ص 268_288.

⁷ - صفاء زغدي، زهية طراحة، تعاويذ صد العقم وفكه والطقوس المرافقة له في منطقة وادي سوف _دراسة أنثروبولوجية_، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 07، العدد 02، ص ص 1198-1216، ماي 2023، ص ص 1198-1216.

⁸ - بن معمر عبد الله، الأنثروبولوجيا والطقوس، مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات، المجلد 8، العدد 1، 2019، ص ص 139_186.

⁹-John F.M. Middleton, Karen Louise Jolly, magic Actions Supernatural phenomenon, <https://www.britannica.com/topic/magic-supernatural-phenomenon/Rites-and-condition-of-the-performer> , 29/05/2025.

¹⁰ - وين ديفيز، السحر-مقدمة قصيرة جدا-، ترجمة رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2014، ص ص 21_24.

¹¹ - المرجع نفسه.

¹² - المرجع نفسه.

¹³ - المرجع نفسه.

¹⁴ - Jean-Pierre Terrail, Witchcraft Practices: A Sociological Study of Magical Aggression, Archives De Sciences Sociales Des Religions, Volume 48, N 1, 1979.

¹⁵ - Ibid.

¹⁶ - Traditions of Conflict, Comments on Evolutionary Anthropology. Cultural traditions and conflict patterns, <https://traditionsofconflict.com/blog/2018/7/6/the-nature-of-sorcery>.

¹⁷ - Ibid.

¹⁸ - Ibid.